

ماذا تعلم الغرب منا ٠٠ وماذا تعلمنا من الغرب ؟ (*)

الأستاذ محمد خفاف الله (**)

ان طريق التأثير الحضارى بين الشرق والغرب طريق طويل ، يبدأ من الماضى البعيد ، ثم يمتد عبر العصور مغربا حينا ومشرقا حينا آخر ، ومن الصعب أن نقيم عليه حدودا تفصل بين مرحلة وأخرى ، أو تفرق بين مؤثر ومتأثر ، فثقافة الانسانية كانت - وستظل - دائمة التسيار ، قائمة على التواصل وتبادل المنافع . وقد اقتضت سنة الله فى بنى البشر أن تزدهر حضاراتهم فى موجات زمانية متنقلة ، ترتفع هنا لتتخفص هناك ، وتحمل معها فى سيرها - غادية ورائحة - كل ما تصب فيها الروافد من آثار الفكر والتجارب ، وضروب السلوك والاجتماع .

الشرق أقدم تحضرا :

ولكن الشئ الذى تشهد به عصور التاريخ المعروفة أن الشرق أقدم تحضرا من الغرب ، فقد اخترعت عبقریات الشرقيين - فى مصر وأشور والهند - وغيرها - مقومات الترقى فى الحياة الانسانية ، كالكتابة والحساب ووسائل الزراعة والنقل ، وحاولت أن تنفذ بتفكيرها الى قضايا الوجود والغاز الحياة والموت ، وقامت فى العالم الشرقى القديم حضارات وفلسفات ، شغل الغرب الحديث - ولا يزال - بالكشف عن آثارها الخالدة على مر الزمان .

ثم غرب مركز الاشعاع فى القرون الخمسة أو الستة السابقة لميلاد « المسيح » الى « أثينا » معلمة أوربا ، وواضعة الأسس الكبرى فى فلسفتها ودراساتها ، وآدابها وفنونها ، فابتدأت بذلك موجة عالية من موجات التطور الانسانى ، حمل لواءها الغرب وعرف الشرق بعد كيف يفيد منها ، ويضيف اليها .

(*) عميد كلية الادب بجامعة الاسكندرية الأسبق .

(**) مجلة الهلال ، يناير ١٩٥٦ ، صص ٥٨ - ٦٢ .

(دراسات تربوية)

ومنذ ألفى سنة من الزمان أضاف الشرق الى سلسلة دياناته حلقة سماوية جديدة ، ما لبثت أن عبرت الى الغرب واستقرت فيه ، وطبعت أممه بطابعها الى اليوم ، وورثت - فيما ورثت - حضارات اليونان والرومان ، ولونت تلك الحضارات بألوان تعاليمها ومبادئها .

الشرق مصدر النور :

ولم تمض على ذلك بضعة قرون حتى أضاف الشرق رسالته الالهية الأخيرة ، فانتشرت فى آفاق العالم الشرقى انتشار النور فى الظلام ، وجمعت تحت لوائها مختلف أممه وحضاراته ، ونسجت من كل أولئك نظاما انسانيا عاما يقوم على مبادئ التوحيد والاخاء ، والارتفاع بكرامة البشرية عن فوارق اللون والجنس والعقيد والثروة . ثم أرسلت طلائعها الى أقصى حدود الغرب المعروفة اذا ذاك ، فاتخذت من شبه جزيرة « الأندلس » وطنا غربيا لها بضعة قرون ، وأنشأت فى « صقلية » مركزا تشع منه على قلب القارة الأوروبية ، ونشرت ما شاعت لها عبقریات أهلها أن تنشر من أضواء الفكر والعلم ، وفتحت أبواب معاهدها ومكتباتها لطلاب المعرفة من أرجاء أوربا ، وأحييت للغرب تراث الاغريق الفيلسفى بعد أن تركت عليه طابعا من جهود مفكرىها وعلمائها . وبذلك أضاف الغرب الى قائمة معلميه أسماء « ابن سينا » ، و « ابن رشد » ، و « الرازى » ، و « جابر » و « الغزالى » و « ابن عربى » و « ابن الهيثم » و « ابن خلدون » وغيرهم . ولم يأخذ الغرب عن الشرق دروس الفلسفة والطب والكيمياء والفلك والرياضة فحسب ، ولكنه تأثر بما نقل اليه من أدب الشرق فى قصصه وأشعاره ، ولياليه واسماره ، وأساطيره وخياله ، وفروسيته ومغامراته ، فسرت فى آدابه روح جديدة كان لها صداها فى عصر النهضة الأوروبية . وقد تكفل بانصاف الشرق فى هذه النواحي طائفة من الباحثين المحدثين فى أوربا وأمريكا ، ممن درسوا تراث الفكر الشرقى فى مختلف مظاهره ، وسجلوا ما كان له من فضل وتأثير على الفكر الغربى .

فترة خمود وجمود :

وتدور عجلة الزمان دورتها ، فتخمد جذوة الشرق قرونا ، يطرد

فيها تقدم الغرب ، وتزدهر علومه ومعارفه ، وتقوم فيه مدنية جديدة قوامها اخضاع ظواهر الكون والحياة للتجربة والبحث المنظم ، ويقوى سلطانه المادى ، ويستهويه ما فى الشرق من خيرات نام عنها أهلها ، فيبسط على أمم الشرق نفوذه ، ويتحكم فى مصائرها وحرقاتها . وتستمر الحال على هذا الى أن يصحو الشرق من نومه فى القرن التاسع عشر ، ويدرك تأخره عن ركب الحياة ، فيولى وجهه شطر الغرب يتلقى على يديه مناهج البحث العلمى ، وأساليب الاصلاح الاجتماعى والسياسى ، ثم يحاول أن يستعيد مكانته من جديد ، فلا يلبث أن يصطدم بقبضة الغرب تحد من حركته وتعوقه عن السير ، فيستجمع لها قوته ويكافح فى تحرير نفسه ، مستمدا الالهام من ماضيه الزاهر ومجده الغابر ، مصمما أن يحيى سيرته كما كانت فى عصورها الذهبية ، وان يقوم بنصيبه فى ترقى الانسانية الحديثة وتقدمها ، كما قام بدوره فى تطور العالم القديم .

ماذا أفدنا من الغرب ؟

هذا هو الحساب التاريخى المجمل لتبادل التأثير بين الشرق والغرب . وهو حساب فصلته البحوث والكتب ، وافاض فيه العلماء والمؤرخون ، فاذا نحن ركزنا نظرتنا فى المرحلة المعاصرة ، وجدنا أننا - من غير شك - وقفنا من الغرب موقف المتعلم من معلمه . فبعثنا طلابنا الى معاهده ، واستقدمنا علماء وخبراءه الى بلادنا ، وترجمنا علومه وآدابه الى لغتنا ، ونقلنا عنه شتى الأساليب فى الثقافة وفى التنظيم العمرانى ، واستعرنا أحدث أوضاعه وطرائقه فى الحكم ، واصطنعنا كثيرا من عاداته ونظمه فى المعيشة والاجتماع ، وأفدنا من الاقتداء به فى تنظيم حياتنا ، وتجديد فنوننا ، فاستكملنا ما كان ينقص تراثنا العربى من أدب القصص والمسرح ، وحررنا لغتنا من قيود الصناعة والزخرف ، وخرجنا بشعرنا من دائرة الاشخاص الى جمال الطبيعة وأسرار الكون ، واتجهنا بموسيقانا وسائر فنوننا نحو الآفاق العليا من تجارب الانسانية ومعانى الحياة ، وأصبحت لنا معاهد وجامعات ، ومصانع ومعامل ، ومؤسسات اقتصادية ، وأنظمة من الادارة والتشريع ، على غرار ما تعلمنا من الغرب فى مدنيته الحديثة .

وكان لاتصالنا بالغرب آثار فى بعض نواحيها الاجتماعية والاخلاقية

فقد حاولنا أن نقلد بعض أممه فى الحرص على النظام وتقويم الزمن ، والاحتفاظ بالتقاليد الصالحة ، والصبر على الغمرات حتى ينجلين ، وعدم الاستسلام لروح اليأس والهزيمة ، وتحاشى الاندفاع وراء الاهواء والانفعالات دون ترو أو تفكير ، وقد غيرنا ما أورثتنا عصور التأخر من موقف الجمود نحو المرأة ، فأتحننا لها الآن فرص الثقافة والعمل والاشتراك فى خدمة المجتمع .

ليس الغرب خيرا كله :

هذه دروس تعلمناها من الغرب الحديث ، أو قل : تعلمنا منه كيف نستعيد الكثير منها فى تراثنا الذى أهملناه . ولكننا قد وصلنا فى تطورنا الى مرحلة أدركنا فيها أن دروس الغرب ليست خيرا كلها ، وأن فى حياته نواحى غير صالحة ، يشكو الغربيون أنفسهم سوء نتائجها ، ويودون لو عادوا فيها الى سبيل القصد . وكثير منها يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، ويفنون اللهو والمتعة والفراغ . وقد بهرت أبصارنا ببريقها ، فأسرفنا على أنفسنا فى تقليدها ، ثم أفقنا فنظرنا فإذا هى منافية للصالح من آدابنا وتقاليدنا ومقومات كياننا الخلقى والاجتماعى . وعلمتنا تجاربنا أن مدنية الغرب تنقصها عناصر جوهرية ، احتفظت بها مدنيات الشرق ، وبنيت عليها فلسفة صالحة فى الحياة ، وإن من واجبنا نحو الانسانية أن نبشر بهذه العناصر ، وأن نعلمها أمم الغرب . وقد بدأ الغرب نفسه يتنبه لهذه الظاهرة ، ويستعين بعلماء الشرق على دراستها ويسأل : ما الذى يستطيع أن يتعلمه من ثقافتنا وتعاليم ادبائنا؟ وأخذ بعض باحثيه يدرسون موقف الاسلام - وهو أكبر العوامل الموجهة فى حياة الشرق - من العضلات الكبرى التى يواجهها المجتمع الحديث ، وتحشد الوفود لبحثها فى المنظمات الدولية .

الاسلام أستاذ الحرية والعدالة والمساواة :

وهنا يبرز الدرس الذى يجدر بالغرب أن يتعلمه اليوم من الشرق الاسلامى ، ذلك هو الفهم الأصيل لحقوق الانسان من حرية وعدالة ومساواة وإخاء . . فان تاريخ محاولات الغرب الجدية فى تقرير هذه الحقوق تاريخ حديث ، لا يمتد الى أبعد من القرن الثامن عشر ، على

حين قرر الاسلام هذه الحقوق واضحة صريحة منذ القرن السابع الميلادى ، وجعلها جزءا من عقيدته ، وركنا من أركان رسالته ، وطبق مبادئه فيها تطبيقا عمليا فى سياسة الأفراد والجماعات فى مختلف الأمم التى شاركت فى حضارته .

وليس من شك فى أن الغرب الحديث جاد فيما يدعو انبه من تقرير هذه الحقوق ، وفيما يعقد من المؤتمرات ويصدر من الوثائق . ولكن دعوته تنقصها روح العقيدة والايمان التى تؤلف جزءا من كياننا الفكرى فى الشرق ، وتتعرض هذه الدعوة فى الغرب كل يوم للنقض والانتكاس من أثر الأطماع والمصالح السياسية . ولن ينقذ الانسانية الحديثة الا مطابقة الأفعال للأقوال .

وحين يتقف الغرب هذا الدرس ، ويحسن فهمه والعمل به ، تستقيم الصلات بين الشرق والغرب ، فيجسرى التأثير النافع من الجانبين ، ويفيد الغرب من معارف الشرق الحديث الناهض وفلسفاته ، وفنونه وآدابه ، وأخلاقه وتعاليمه ، كما أفاد الشرق فى المائة والخمسين سنة الأخيرة من ثقافة الغرب الحديث وطريقته العلمية وثمار عبقريته فى الفكر والاختراع .